

لوسى

لوسى بنتى الانجليز سرى سرى
قد كتبت الآيات بمحمد لوهنا بخت

التمهدة الحزينة

عاشرت لوسى خمسة وعشرين عاما
فوجدتها طورا من النساء فريدا ، ولونا
من الحسان طريفا ؛ فهي لا تعرف للمشية
الطويلة قيمة ، ولا تحفظ اللود حرمة ، وقد
كنت فى نظرها رجلا غايظ القلب ، بليد
الإحساس ، سقيم الوجدان ، ساحرا بالدينار
هارلا بالناس ، ولم يكن ليحسبى ذلك
الرأى منها يقدر ما يحسبى تعلقها بى ،
وإنجذابها نحوى ، فهي لا تفكر مطلقا
أن تحب بى وبين نفسى ، ولكنها كانت
دائما اللاحقة بدعواتها للغداء أو للعشاء
أو لكى ، وفى بعض الأحيان كانت تهبى

ذراعى . ونادتنى : أمى ، أمى ، فى صوت خافت
فرح ، وهكذا نادتنى لأول مرة ، بينما كان
هانك ينظر إلينا كأننا نقيم فى السويداء
فليه . ولم استطع مغالبة دمعى الذى انهمر
من عيني ؛ ولكنها كانت دموع الفرح ،
كانت دموع السلام ، كانت دموع الاستجابة

زبيب الحكيم

كانت ، إذا غبت عن مجلسها ،
لا تذكرنى إلا بلاذع القول ، وقارس
الكلم . وما كنت أستغرب ذلك منها .
فإن لوسى كانت نبغضى وتضيق بى ، ورغم
ذلك كله كانت دائمة الاحتفال بى ،
شديدة الانشغال بأمرى . أما مصدر ذلك
الاحتفال ، وسبب ذلك الانشغال فقد كان
سدا مغلقا دوى . ولكن مزيدا من رقة ،
وقيضا من حياء . كانا نعتمانها أن تصرح
أمامى برأيتها فى . وحتى ذلك ما كان يحول
بينها وبين ما تهدف إليه من معنى وما تقصد
إليه من رأى ، فهي تصل إلى ما تريد
بالنظرة العاتبة أو الإيماء الرشيق أو

شبرد فى الملاحظة التى جثوت فيها على ركبتى
بحوار جيبى لأخفف من بأسها ، وأؤمن
خوفها ، وأطمئنها بأنها ابتنا ، نعم ابتنا
التي لن تسمح لأحد أن يأخذها منا ، إلا
إذا أبدت عى رغبة أخرى ؛ وقلت لها
ولكنك تريدنا أليس كذلك ؟ فحملت
الطفلة فى وجهى وإبهج وجهها كشروق
الشمس فى اليوم الصحو ، وارتدت بين

لى فى أجازة آخر الأسبوع برنا عجا لطيفا فى
بيتها الرقيق الجميل

وأخيرا اكتشفت سر ذلك التعلق
والانجذاب ، ولم يكن غير الشك والظن :
الشك القاتل الذى يقلق مضجعا فى أننى
لم أكن أكن بها ، والظنة البرحة التى تثير
أعصابها أننى لم أكن أومن بها . وهذا الشك
وهذه الظنة هما الشئ الذى كان يعضنى إليها
وفى الوقت نفسه يربطها بى . وكيف لها أن
ترى بى أو تسترخى منى وأنا الأوحدين
الناس الذى لم يكن يرى فيها غير أضحوكة
وملهاء ، وقد أصبح أنها كانت تحس
إحساسا خفيا أنى كنت أبصر وجهها
الحقيق وراء ذلك القناع التفسكرى الذى
كانت تبدو فيه ، لما كان يقر لها قرار ،
ولا يبدأ لها بال حتى ترى قد أخذت القناع
على أنه الوجه ولكن هيهات لما تريد !
ما كنت لأجزم بأن لوسى كانت مدعية
مفتربة ولكنى كنت دائما أسائل نفسى :
أفلحت هذه المرأة فى خداع نفسها كما
خدعت الناس من قبل ، أم هى جذوة من
دعابة وروح من فكاهة استقرت فى أعماقها
تحبب إليها ما تفعل ، وترين لها ما تقول ؟!
وإذا صح ظنى هذا الأخير فربما كانت لوسى
تنجذب إلى لوسى صدقا لدودا لها بقايتها
سرا تخفيه عن الناس أجمعين !

وترجع لوسى إلى ما قبل زواجها
يوم كانت فتاة صغيرة هزيلة مرهفة رقبة
تخيلة وإن لاذكر عينيها نيتك الواسعين
الجميلتين وقد غلبت عليها سحابة حزن تريد
جمالا على جمال . وأذكر أن والدتها كلما
يفتنان فى تدليلها ورعايتها ، ويتناقسان على
حبها ومرضاها . وأذكر أن مرضا أصابها
أغلب ظنى أنه الحمى القرمزية ، أورثها قلبا
واهيا واهنا مضمعما ، وكان عليها أن ترفق
به وترأه ما استطاعت إلى ذلك سبيلا
ولما جاءها (توم ميتلاند) خاطباروع والداها
واضطربا ، فاعتقادها أن قلبها كان أضعف
من أن يدبر بيتا أو يتحمل عبئا ، وأن
جسمها كان أوهن من أن يقوم على زوج
أو يسهر على ولد ، ولسكنهما لم يكونا على
سعة من العيش مثلما كان توم . ثم أن هذا
قد أكد لها أنه مسخر نفسه وما تملك
لإسماع لوسى وإمتاعها ، فلم يجدا بدا من
أن يجامروها أمانة فى عنقه ، وودعة بين يديه
كان توم ميتلاند قويا جميلا ، وكان ضاحكا
ملوا ، وقد نوله فى حب لوسى وتذله ،
واعتقد كما اعتقد غيره من الناس أن عمر
لوسى معه ، بقليلها ذاك الضعيف الواهن ،
سيكون كعمر الزهر أو أقصر ، ولذا أمضى
العزم على أن يجعل من أيامها القليلة معه
رغدا وبراً وسعدا ، هجر توم أحب أنواع

وقد سمعت لوسى مقالتي تلك منه فقالت لى :
 « عدا سأدفع الثمن غاليا ، وسوف
 أذوق طعم الموت علقها »
 ولكنى رددت عليها :
 يقينى أنك دائما قوية جدا لتنهضى بها
 تربدين

وتلك حقيقة ، فقد كنت ألاحظ أنها
 تنشى الحفلة الساهرة ، تروق لها فترقص
 فيها وتخرج حتى الصباح . وتنشى الحفلة
 الساهرة تظلم أمامها وتثقل عليها ، فتشعر
 بأسقام الدنيا ثبحر بها ؛ فيضطر نوم
 أن يعود بها إلى البيت مبكرا . أما ردى
 عليها فأغلب ظنى أنه لم يقع فى نفسها
 موقعا حسنا ، فقد رأيت فى وجهها ابتساما
 متكافئا ورضا مصطنعا . ولكن عينيها
 الزرقاوين الجيأتين كانتا تقدحان شررا ، ثم
 إنها لم تستطع أن تحكم نفسها أو تزعج
 لسانها فانطلقت تقول لى :

« لكأنى بك تنتظر حتى أسقط مغشيا
 على ، فأسوت لتسر وترضى »
 ولكن لوسى لم تسقط ، ولم يفس عليها
 ولم تمت ، ولم أمر أو رض ، فقد عاشت
 حتى وارت نوم فى التراب

لاقى المسكين حتفه فى رحلة نهريه اشتد
 فيها الصقيع وقرس الماء ، واستأثرت لوسى
 بالألحفة والأغطية من دونه . فراح نوم

الرياضة عنده ، ولم ترغب إليه لوسى فى ذلك
 إذ أنه كان يسرها أن تراه يخرج للصيد أو
 للجولف . ولكن نوبة القلب كانت
 تمشأها كلما علم أن يتركها أو يبعد عنها ،
 ففتته ذلك فى رياضته وسده عنها

وقد يختلفان فى أمر من أمور الدنيا ،
 أو فى مسألة من مسائل البيت فتكون لوسى
 هى المذمومة الخائفة ، فهى أطوع زوجة
 يحلم بها رجل ولكنها ما تكاد تنصاع لما
 يرى زوجها حتى يصرعها « القلب »
 فتلازم فراشها أسبوعا أو نحو أسبوع ؛ ثم
 بعد ذلك يتجادلان فيما اختلفا فيه من قبل
 حدلا رفيقا ، لما يقدر نوم أن يصرفها عما
 انصاعت إليه إلا بعد لآى شديد

شاركتهما ونوم ذات مرة فى رحلة خلوية
 قصيرة ! كانت إليها مشوقة ، وقد نعمت
 بها وابتهجت ، ومشت فيها أميالا ثمانية
 ما ارتفع لها صوت بشكاة ، وفى ذلك
 وقت لنوم :

« إنها أصلب عودا مما تحسب وبحسب
 الناس »

ولكن نوم هز رأسه هزة من لا يوافق
 وقال لى :

لقد عرفت على أربع أطباء القلب فى
 العالم ؛ واتفقوا جميعا على أن حياتها معلقة
 بحيط واه ولكن لما روجا لا تهر

ضحية لنزلة ذلك البرد

مات نوم وقد ترك لها نروة طويلة عريضة
وطفلة صغيرة جميلة . ولا شك أنها رزئت
بموته، ولكنها استطاعت أن تغالب أجزائها
في سبر جيل . وكان أهلها وأسدقاؤها
جدا يرون أن لحاقها بزوجها أمر وقت
لا أكثر . فكانوا يرتون لأريس طفلها
تلك الصغيرة الجميلة . ولكنهم لا يلتفتون
في ذلك الوقت لأريس بقدر ما يلتفتون
لأمها لوسى ، فهم جميعا مشغولون بها ، فما
كان لها أن تحرك أصبعها أو تنشط قليلا ،
وكيف لهم أن يخلوا بينها وبين الحركة
والنشاط وقد رأوها بأعينهم تسقط صريعة
لوبة القلب ، وتقف على عتبة الموت كلما
أخفت نفسها بعمل فيه نمب

لقد أصبحت لوسى في حيرة من أمرها :
فلا ذراع قوية تتكى عليها ، ولا صدر
رجيا تسكن إليه ، وكيف يتأتى لها تربية
تلك الصغيرة أريس وهي على ما هي عليه من
سقم . هكذا كانت تقول لمن حولها من الأهل
والأصدقاء ، فيسألها هؤلاء وهؤلاء : لم
لا تزوجين ثانية ؟ فتجيبهم أن ذلك أمر
لا يمكن أن تفكر فيه أو تفعله وهي في
مرص قلبها . وتريد على ذلك بأن روح نوم
العز لا شك مباركة أمرا كذلك لو تم ،

وربما كان زواجها خيرا ورحمة بأريس لو
أقدمت عليه . ولكن من يجوز أن يحمل
بنفسه مسئولية الزواج من امرأة ارمضت
جوانحها الآلام ؟

والثريب من الأمر أن أكثر من فتى
تقدم ليحمل تلك المسئولية الضخمة -
مسئولية الزواج من لوسى !

وبعد سنة من وفاة نوم كانت صاحبنا
تسرع الخطا نحو مذبح الكنيسة لتعقد
قرائنها على جورج هو بهاوس

وكان جورج فتى رائع القوام ، سمح
الحيا . ولم أر رجلا يقر بالفضل وبمترف
بالجيل كما كان جورج يفعل وهو يقترن
بتلك الأرملة الصغيرة الهزيلة . كانت
تقول له :

« سوف لا أعيش طويلا يا جورج ،
وسوف لا أكلفك من أمرك رهقا »

وكان جورج جنديا طموحا ، وكانت
لوسى في غنائبها بصحتها تقضى الشتاء في
مونت كارلو ، وتقضى الصيف في دوفيل .
وقد تردد جورج قليلا أو كثيرا وهو بهم
بترك عمله . وكانت لوسى في بادئ الأمر
لا تسمع إليه وهو يمرض الحديث الاستقالة
ولكنها حسمت آخر الأمر ، كما كانت
تخضع دائما ، واستقال جورج من الجيش
ثم أصبح ولا شغل له إلا راحة لوسى

واسادها !

وفي السنتين أو الثلاث التي أعقبت زواجها من جورج رأيت لوسى ، بالرغم من ضعف قلبها ، تزين في تبرد ، وتشتي الحفلات في مرج ، وتسامر في جنون ، وترقص في طرب ، وتدايب الشباب في دل وثيه

ولم يكن جورج موهباوس في قوة زوج لوسى الأول ؛ فكان يضطر من ساعة لأخرى أن ينعش نفسه بشراب فري يمينه على عمله اليومي المضني ، بوصفه زوج لوسى . الثاني ! وكان محتملا أن تتحكم عادة الشرب تلك في جورج فتغضب لوسى وتقلق . ولكن لحسن الحظ ثبت نار الحرب ، فالتحق جورج بفرقة من جديد ولم تمض شهور ثلاثة حتى جاءها نعيه

فدحنها السدة . ولكنها استجمعت قواها وقررت ألا تستسلم للأحزان فتعصف بها الأحزان ، وألا تجتر الآلام فتصرعها ؛ ثم رأت أن يجعل من كرمها الصغيرة في مونت كارلو مستقنى يستقبل الضباط الناقبين ، ويشتغلها عن دنياها تلك الخاوية الباكية . . . وكان جميع أصدقائها يؤكدون لها أنها لا تقدر على كل تلك الجهود والاعباء ولكنها كانت ترد عليهم :

إنها ستقتلى . وأنا أعرف ذلك . ولكن ذلك لا يمكن أن يثنيني عن القيام بدوري مهما كان صغيرا

ولكن اليهود لم نعتبها ، والأعياء لم تقتلها ، بل بقيت دائما كما كانت قبل أن تقررها الخطوب . وعاشت عمرها كاملا وكان يتيها في مونت كارلو من أشهر بيوت النقاة في فرنسا ، وأوسمها صيتا ؛ وأبعدها ذكرا ، جمعت بها المصادفة مرة في باريس ، وكانت تتناول الغذاء في مطعم بمسحبة شباب فرنسي جميل ، وقد علمت منها أنها تزور باريس في شأن من شئون مستشفاها ، وذكرت لي فيما ذكرت أنها سميدة جدا مع ضباطها الناقبين ؛ فهم جميعا يعرفون نصتها فيشتقون على قلبها الضعيف ومزاجها الرقيق ؛ فها يدعوونها رفق نعتبها بعمل مضنى أو أمر ثقيل ؛ وكلهم يدعوونها ويرثون الحامسا ؛ كما لو كانوا جميعا أرواجها ! ذكرت لي ذلك ثم أعقبته شهادة جري أرسلتها في الهواء ؛ ثم جعلت تقول : ما أتمسك بأجورج ! من كان يظن أنني بقاى هذا الكسير الضعيف المأخض بالجراح ، تمتد بها الزمن حتى أواريك التراب ! أقتلت لها :

وما أنسى يوم أيضا ! . ولا أعرف لم تم تمر لذكرتوم . ولكنها قابلتني بإتسامة

كانت أيريس فتاة دمثة الخلق ، حاملة الطبع ، رفيقة الشعور ، وقد شبت وهي تسمع أن ممة أمها في خطر دائم . وأن لا شيء مطلقا يجب أن يمكر صفوها أو يقلق خاطرها وكانت لوسي تقول إنها سوف لا تسمع لفتاتها الصغيرة أن تضحي بنصرة شبابها وزهرة أبيها في سبيل امرأة عجوز مثلها . ولكن قولها ذلك لم يجد عند فتاتها الطيبة أذنا ساعيا أو قلبا واعيا ، فالأمر عند إيريس لم يكن أمرا دين تقى به لأمها ، ولم يكن أمر تضحية تبذلها لصحتها .. وإنما كان سعادة وفرحة ورسي تحسها جميعا وهي تسمى لتسعد أما عزيزة بأنة كأمها

وبين التهنيدات والرفوات كانت لوسي تسمع بأن تضحي كثيرا ، وتضحي دائما .. كانت لوسي تقول : أن أيريس تسر كثيرا إذ ترى نفسها قد شبت عن الطوق وتضججت وصارت شيئا كبيرا بعمل فينفع . وكنت أسألها :

ألا ترين أنه يحسن أن تعطى الصغيرة فرصة أكبر لتذهب هنا وهناك — روح عن نفسها ، وتلاعب مع لدااتها ، وتتعلم بوقتها وشبابها ؟ فترد على لوسي :

ذلك ما أقوله لها دائما . ولكنني قد عجزت أن أجعلها تسعد بأبائها ، وتنال من الحياة أطايبها ونعائرها .. فأيريس لا تسمع لي

سفرا باهتة . ثم رأيت عبيها الزرقاوين الجيلتين تسجان بدمع سحجين . ثم أخذت تقول لي : إنك تبدو كمن يحسدني على الأيام القليلة التي أقدر أن أعيشها ! فرددت عليها قائلا : ولكنني أظن أن قلبك تحسن . أليس كذلك ؟ فأجابتنى :

إن أسير إلى خير من ذلك مطلقا . لقد كنت في زيارة متخصص كبير هذا الصباح ، ومال لي يجب أن أكون مستعدة لأسوأ الظروف والفاجات ، فقلت لها :

أجل ! لقد كنت مستعدة لذلك طيلة العشرين سنة الأخيرة ..

ولما وصفت الحرب أوزارها ، استقرت لوسي في لندن . وكانت يومئذ في أواخر شبابها وأوائل كهولتها ، شاحبة الحدين ، واسعة العينين ، نحيلة الجسم ، هزيلة الأعطاف ولكن سنها لم تبد يوما واحدا أكثر من الخامسة والعشرين

وكانت أيريس ابنتها في ذلك الحين طالبة بالدرسة . قد اكتمل عودها وأمتلا جسمها وقد جات لتعيش أمها . وكانت لوسي تقول :

إنها سترعاني وتقوم على أمري . وقد يتقنها أن تلازم سيدة عليلة سقيمة متلى . ولكن أباي معها لن يطول ، فسوف لا تتبرم ذلك أو تشقى .

والكتاب والفنانين ينشون ندوتها كل يوم
في الأسفل ، يتساولون أقذاح الشاي
ويتجادلون أطراف الحديث أشتاتا وألوانا
قلت لها بعد أن استقر بي المقام قريبا منها :
سمعت أن زواج أيريس لن يتم ! قالت لي :
أنا لا أعرف من أمر ذلك شيئا . ولكن
أيريس تبدو كمن لا تريد قريبا . وقد توسلت
إليها ألا تفكر في أمرى . ولكنها تصر
وتحرص على ألا تتركني وحيدة في عنتى
هذه ! فسألتها :

ألا ترين في ذلك سحقا لقلبك ، وعصفا
بجربها ؟ فأجابت :

صحيح ما تقول . ولكن الأمر لن يطول
فما هي غير شهيرة وأكون قد فارقت هذه
الدنيا . وشئ ما يحزننى أن أرى أحدا ينضح
بشيء من أجلى . فقلت لها وقد عيل صبرى :
عزيزى لوسى ! لقد وارىت الثرى زوجين
ولا أرى ما يمنعك أن تلحقيهما باثنين آخرين !
فحدثنى بنظرة ملؤها الحب والكر
وجعلت تقول : أرى في كلامك هذا مزحة
أو دعابة ؟

قلت لها : ألا يدهشك يا لوسى أنك
ترغبين في الأمر فتندفعين إليه كالإعصار
لا تبالين على شئ حتى تؤديه كأحسن ما يكون
الأداء ! ألا يدهشك أن قلبك هذا الذى
ترمينه بالرهن والضعف لا يصدك إلا عما

كلاما . والله وحده يعلم ما إذا كنت أرغب
أن أرى أحدا يشقى لأجلى أو ينضح بحياة
لحياتى . ولكنى عندما عانيت أيريس على
مسلكها ذلك قالت لي :
يا لأمى السكينة ! إنها لترغب إلى أن
أزور صديقاتى ومعارفى ، وأن أعشى السهرات
وأشترك في الحفلات ؛ ولكنى ما أكاد أم
بمفادرة البيت حتى يصرعها قلبها — ذاك
الليل . ولهذا فأنا أفضل دائما أن أبقى
بحوارها أقوم عليها وأرى حالتها

وكانت سهام كيوييد قد عرفت طريقها
إلى قلب الصغيرة أيريس . وكان فارسها
شبابا رفيقا من أصدقائى . ولما طلب إليها
أن تزوجه وافقت على ذلك وارتاحت إليه .
وقد اهتزرت لاسمها وطربت . فأيريس كانت
أثيرة عندي . وكنت سعيدا جدا إذا نذروا جها
كان سببى لها حياة أسعد وأجمل من حياتها
مع أمها . ولكن صبغت أصبح وإذا بخطيها
ذاك يأتينى محزونا كشيء بالخبرنى بأن زواجه
قد تأخر إلى أجل غير مسمى . إذاً أيريس
قد شعرت بأنها أن تستطيع أن تتخلى عن
أمها . وبالطبع أن الأمر لم يكن أمرى . ولكن
وجدت نفسى أفرع باب دار لوسى . وكانت
يومئذ قد تقدمت بها الأيام وبدت عليها آثار
السنين ، وأحاطت نفسها بجماعة من الأدباء

بعد مهم بي . إن أحدا لا يرى لحالي . أنا الآن
عبي على الناس فادح . فضيت أسألهما :
« وهل مات لأبتك إن رواجها ذلك
قضى عليك ؟ » فأجابتنى :

« أجل . لقد اضطررتي أن أقول له
ذلك . » ففت لهما :

« إنك تبدين كما لو أن أحدا استطاع يوما
أن يملكك على شيء تكرهينه . » فودت
على مغيظة :

« لأريس أن تزوج فتاها اليوم أو عدا
وإن كان ذلك قاتلي ، فلا ذهبن له ضغبة
وقرباها . » فقلت لهما :

« أجل . شيئا نحاظر بذلك . » فقالت
لي معاذية :

« أما عليك بحوي عاطفة أو رافة ؟ »
فقلت لهما :

وهي يستطيع قلب أن يشفق على شخص
يبعث فيه من التسلية والضحك والدعابة
مثلا تبعتين : « وهنا أريد وجهها وامتنع
خداها ، وذا تكاف ثمرها الابتسام فلاشك
أن قلبها كن بشعر غيظا . ثم أخذت
تقول لي :

سترف أريس إلى عريستها في بحر
شهر ، وإذا ما أصابني سوء أو مسني ضرر
فأرجو الله أن يغفر لك ولأريس كيدكما
وبنيكما . وكانت صادقة الوعد في ذلك :

تكرهين ؟ قالت لي :
آه . أنا أعرف سوء ظنك بي . إنك
لا تكاد تفطن إلى أي مكروه يلبي ولا إلى أي
خطر يحيق بحياتي !

وهنا رميتها بنقارة قاسية ، وفلت لها :
أبدا . أبدا . اعتقد أنك تمثلين ولا
تصدقين ، وتقومين بخدعة هائلة طيلة هذه
الحس والعشرين سنة الأخيرة . وبقيت إليك
أشد من عرفت من الناس أنانية وجشعا .
لقد عصفت بشباب ذينك الرجلين اللذين
رمت بهما الأقدار في طريقك المشثوم ، وهما
أنت ذى اليوم تقيمين العقبات والسدود أمام
سعادة أبتك وهناتها . ولم أكن أستغرب
لو سقطت لوسي بعد كل ما في تلك من إعياء
قلبي وهبوطه . وكنت أنتظر أن يتجههم
وجهمها ، وتغلق مراحل سيورتها ، ولكن
شيئا من ذلك لم يحصل . بل إن ابتسامه
عذبة رقيقة قد أرسلت على نغرها . ثم
سمعتها تقول :

سأقدم عن قرب على ثولك هذا على .
فقلت لهما :

والآن هل قر فراك ألا تزوج أريس
من ذلك الفتى ! قالت لي :

لقد تضرعت إليها ما استطعت التضرع
أن تزوجه ؛ وأنا أعرف أن هذه هي القاضية
علي . ولكني لا أبالي بنفسى . إن أحدا لم